٣ ـ خطاب الدكتور عبد الكريم اليافي

في حفل استقباله خلفاً لعضو المجمع الراحل الدكتور محمد سامي الدهان

أيها السيد رئيس المجمع ، أيها السادة الأعضاء ، أيها الحفل الكريم .

الحمد لله الذي شرف اللغة العربية بالتنزيل العظيم ، والصلاة والسلام على الرسول الكريم ، الذي جاء في صفته أنه كان يتكلم بجوامع الكلم .

وبعد فإني أقدم شكري للثقة التي أوليتمونيها حين اخترتموني جندياً من جنود السلام الذين يبنون للحضارة والثقافة ، ويتعهدون صرح هذه اللغة الشامخ وما فيه من كنوز وخزائن ، ويتفقدون ما يحتاج إليه هذا الصرح من الصون والإعلاء والاتساع ، وأشكر للسلطات المسؤولة إقرار هذا الاختيار وإنفاذه .

فكما أن ثمة جنوداً يدفعون عن الحمى الأخطار المادية بالسلاح والعتاد ، كذلكم ثمة جنودٌ يدفعون عن كيانه الفكري الأخطار المعنوية ، وبناة يرسمون ما يلزم للحاق بركب الحضارة .

ولا جرم أن لغتنا العربية هي الصعيد المكين الصلب الفسيح الذي نلتقي عليه نحن وإخوتنا في أرجاء الوطن الواحد الواسع ، وهي الرابطة القوية المقدسة التي تربط الأواصر ، واللحمة العريقة التي تصل الماضي بالحاضر ، والحافز الناشط الذي يشرف بنا في لباس العلم الحديث على تشوّفٍ مستقبلٍ نأمل أن يكون الباسم الزاهر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإن مجمعكم الموقر الصغير بعدد رجاله والكبير بشأنه وشأوه ليعد بما قدم من أيادٍ جلّى في جبهة المنشآت القومية مكانة ، وفي طليعة المحافل الفكرية خطراً ونباهة ، تصونون مفاتح التراث وكنوزه ، وتتفهمون أحرازه ورموزه ، وتجلون لآلئه ودرره ، وتبرزون محاسنه وغرره ، وتبعثون ما يلائم من القديم ، وتهذبون في حقول المعرفة اللغوية ما ينبت من بارض وجميم ، تؤثلون كل طارف وتليد ، وتتلافون بالوضع والتعريب وأمثالهما كل جديد .

وإن جهودكم الدائبة لفي غنية عن الإشادة . هل يحتاج ضوء الشمس المشرقة إلى شهادة ؟ ولكني مع ذلكم أريد أن أشير أولاً إلى أعمال مجمعكم في وضع المصطلحات المستجدة موائمة لروح اللغة العربية في شتى الميادين ، مبكرة أو متسقة مع أعمال المجامع في البلاد العربية الشقيقة ومع مكتب تنسيق التعريب بالرباط . فهي كلها خليقة بالثناء ، حقيقة بالفخر والإطراء . وهل لي أن أخص بالتنويه أعمال رئيس المجمع الأستاذ الدكتور حسني سبح الذي ما فتىء يسهر على تجويد المصطلحات الطبية يعرض شتاتها ويقترح أقربها دلالة وأمثلها صحة ، سهره على إدارة المجمع وعلى حفز نشاطه واستكمال ما يتشوف إليه المجمع من غايات مجيدة في اللغة والبيان . وذلك كله بحكمة الشيوخ السديدة وهمة الشباب العتيدة العنيدة . وهو ذو الفضل الكبير في إرساخ تعليم الطب باللغة العربية المبينة ، وفي التأليف الناضج فيه .

إن تلك الأعمال كلها تبرز سعة لغتنا وطواعيتها ورهافتها ، حتى إنا لا نكاد نجد لرهافتها مثيلاً ، ولا لطواعيتها شبيهاً ، ولا لسعتها نظيراً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إنها أغنى من تاج العروس ، وأوسع من المحيط ، وأرسخ من أساس البلاغة ، وأحلى من قطر الندى ، وأجمل من شذور الذهب . وكفى بها لغة الأرض ولغة السماء . ولكن كل ذلك إلى جانب الأصالة والعبقرية اللتين لها متصل أعمق الاتصال بتقدم المجتمع ونضال أبنائه ورقيهم ودرجات علومهم وثقافاتهم . فالأرض العربية خصيبة معطاء ، والثقافات والعلوم في مجال الحضارة حقول تحرث ، وروح يتعهد ، وثمار تجنى ، وأزاهير تضوع وتروع ، لا بد لها من جهود دائبة دائمة ، ومن مساع عالية غالية .

وأريد أن أشير ثانياً إلى جانب من اللغة لا يقل في رأيي عن وضع المصطلحات الحديثة خطراً ومكانة إن لم يكن أدهى وأكبر ، وأعمق وأخفى . ألا وهو طبيعة البيان العربي السليم الصافي وأساليبه الدقيقة الصحيحة وصوغ جمله وصلاً وفصلاً ، تصريحاً وتلميحاً ، تقديماً وتأخيراً ، تعميماً وتخصيصاً ، تنكيراً وتعريفاً إلى غير ذلك مما يدخل في جذور البيان الضاربة في أعماق اللغة . وهي التي تختلف فيها اللغات وتتميز وتقترب أو تفترق . وهنا نشهد كدورة كبيرة شابت أساليب العصر الحاضر دخلتها من العامية المبتذلة ، ومن لغات أجنبية تقدمت بتقدم أبنائها ، ولكنها في جبلتها متختخة ملخلخة بهرجها حجب هجونتها ، وطلاؤها الحضاري ستر ثغثغتها وخنخنتها حتى لكأن البلاغة الحاضرة أصبحت لكنة ، والإعراب عجمة ، والرّكنّة قاعدة ، والإسفاف علواً . إن أخطر ما يتهدد اللغة هو هذه الأمراض التي تساور بناءها الصحيح وتخامر كيانها السليم وتتسرب إلى ينابيعها الثرة الصافية كالسمّ الخفي المدوف .

لا شك أن اللغات يفيد بعضها من بعض ، وأن الآداب العالمية يزيد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بعضها في ثراء بعض . ونحن من أنصار التفتح على الآداب العالمية والاطلاع بأقصى الدرجات على اللغات الأجنبية . بل نحن في أمس الحاجة إلى ذلك في هذا العصر عصر النهوض والتعاون . ولكن كما أن هنالك استعماراً اقتصادياً وغزواً عسكرياً ونفوذاً سياسياً كذلك هنا في مجال اللغات والآداب معارك نفوذ وحلبات اصطراع ، وميادين غلبة . وكم يكون مفيداً أن تزداد لغتنا قوة وبأساً وعلواً واتساعاً و « تطوراً » سليماً يحافظ على صميم أصالتها في هـــذه الميادين والحلبات والمعارك على أيدي الجهابذة في أرجاء الوطن العربي ، لا أن تبوء بالاستسلام والخسران وتتسم بالكدورة والمسخ .

أيها السادة الكرام ! نحن الآن في ريعان الربيع . ومن يطف في ربوع دمشق وأرباضها تفعَمْه الأشذاء الذكية المتفاوحة ، وتبهره لواحظ الأزاهير الرانية اللماحة في رحاب الروح وخضر الحقول وشرفات البيوت تبادره بالتحية والوداعة وتغازل جفونه بالمحبة والسلام .

أذكر هذا لأن ماضي بلادنا كلها كان خيراً للانسانية . وأقتصر هنا على ذكر الأزاهير المختلفة التي سفر بعض أغراسها إلى الغرب فاطمأنت إليه ونمت في رياضه حين تعهدها فتنسم طيوبها وعبيرها وتملى جمالها وإشراقها . هل أورد مثل الورد البلدي الذي نحن في موسمه والذي كان قد عبر إلى أوربة شرقيها وغربيها في غضون الحروب الصليبية وأصبح في تلك الارجاء يعرف بأصله الدمشقي Rosa Damascena . إنه ابن نَيْسان هنا وابن أيار هناك تغنى به شعراؤهم في جملة ما تغنوا به .

كذلك هاجرت أساليب البيان العربي إلى لغات الغرب فكانت وميضاً ينير عباراتهم وألقاً يضيء مكنون هواجسهم . ولكننا نشهد اليوم على عكس تلك الهجرة سموم الحضارة الحديثة تأتينا لاروحها ، ومساوئها تغزونا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

متلفعة ببراقع محاسنها ، وحديدها بدلاً من وردها ، ودخانها بدلاً من طاقتها الفكرية ، ومكايدها عوضاً من معونتها الحقيقية .

وجهل أبناؤنا لغتهم الجميلة تجاه حصار تلك اللغات الأجنبية ، ونحن نتظاهر برغبة التقدم ، فنستسلم لنزعات السهولة ونزغات التهجم ، وفي هذا ما فيه من داء دويّ ورجز خفي .

إن أهم ما في اللغة سلامة تركيبها ونحوها وبيانها . وإن أحوال الأمم من لغاتها كأحوال الناس من كلامهم . ولقد تبين كما تعلمون في علم النفس اللغوي أن الطفل يبتدىء في تعلم اللغة فيبغم بالأصوات ثم الألفاظ مع الإشارة لينثبّت آخر ما يتثبت عنده حين يشب تركيب الجمل الصحيح . وتبيّن أيضاً في علم النفس المرضي أن الذاكرة حين تضعف بالهُتر عند الطاعنين في السن تضيّع أوّل الأمر أسماء الأشياء والأشخاص . ومتى استفحل المرض وأوغل مسّ صيغ التعبير حتى يتزلزل البيان من أساسه وتتزحزحَ الألفاظ عن أماكنها وتكدر اللغة على اللسان المثقل وتكدر معها الدنيا كلها وتدلهمّ ليغدوَ المرء همّاً مدرهماً متهدماً يَفِناً فانياً لا يرجى. وكم من رواية أبرزت في علم النفس مكانة النحوِ والتركيب والصيغ البيانية ورسوخَ جذورِها في اللغة . فقد روي أن وسيطة سوسرية ادّعت أنها تتصل بسكانِ المريخ وتتكلم بكلامهم وذلك قبل بلوغ الأقمار الصناعية مجال هذا الكوكب وتصوير جوانب من سطحه . فلما أقبل العلماء عليها وسجلوا ألفاظها وجدوها كلها غريبة مخترعة . بيد أنهم استشفوا من خلال تركيبها صيغ الجمل الفرنسية . ثم عرفوا أن تلك السيدة استطاعت أن تخترع الألفاظ كلها ، ولكنها لم تستطع أن تخترع صيغ النحو والبيان إذ كانت لا تعرف غير اللغة الفرنسية التي هي لغتها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لذلك كله نؤكد أن رسيس الداء الذي يبري جسم اللغة ويذهب نضارتها ويطمس رواءها هو الذي يبلغ صميمها ألا وهو صيغها الأصيلة فتؤذن عندئذ بضمور لا عافية بعده ، وبمسخ لا عرفان في أعقابه .

وإنما يكافح الداءَ وينجع في علاجه نشر التراث بأنواعه المختلفة وأفانينه المتنوعة نشراً واسعاً يعرض على المتعلمين والباحثين أصول التعبير وفنون القول وأساليب البيان سليمة صحيحة دقيقة قوية ، على ألا تكون تلك الأساليب والفنون والأصول قيوداً وأغلالاً بل تغدو جسوراً بين الماضي والحاضر والمستقبل ومنطلقات يعبر عليها الفكر الأصيل وينمو في ذراها الجهد النبيل ويتجسم في جوانبها القول المصقول حتى تصبح الكتب الحديثة على اختلافها ، أدبية وعلمية ، مقروءة مفهومة مستساغة شفافة عن الأغراض ، لا مبهمة ولا ممجوجة ولا مضطربة ولا يعتورها الخلل والركاكة .

ليكاد يكون تشتت أساليب البيان وخللها وتفتتها كمثلة برج بابل إنذاراً بنشوء لغات محلية فرعية توهن أوصال العالم العربي وتضعف تعاونه وتكافله والتقاء أجزائه .

ومن هنا يلزم إقامة معهد عربي عام وجاد لنشر التراث ودعم إحيائه، وتنسيقه كما هنالك معهد للتعريب ، وذلك إلى جانب مجامع اللغة العربية والجامعات وإلى ضرورة توكيد التعليم بمختلف درجاته باللغة العربية المبينة الصحيحة السليمة ، لا باللغة العربية العامية . وإلا لكان التعليم باللغات الأجنبية أجدى وأنفع حفظاً على سلامة اللغة العربية إزاء التشويش باللغة العامية الضعيفة المتعتعة .

ولا بد لي من أن أعرب عن إعجابي بكل من اشتغل بتحقيق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

النصوص القديمة وعمل على نشرها . وأنوه في هذه المناسبة بالجهود الكبيرة التي يبذلها الدكتور ميشيل الخوري في تحقيق كتاب « التيسير في المداواة والتدبير » للطبيب العربي أبي مروان عبد الملك بن زهر تحقيقاً علمياً كاملاً. فإن هذا الكتاب ذخر لمن يطالعه في دقة البيان وإيجازه ، أمد الله في عمر الرصيف الكريم وأثابه على عمله بالنجاح المثمر ، والتوفيق المؤزّر والمجد العلمي المؤثل ، وأثابه أيضاً على ثنائه الجميل الذي غمرني به . ولا غرابة في أن يصدر الطيب عن أهله ، فهو أحد بناة التعليم باللغة العربية في جامعة دمشق أرسى أساس المصطلحات العربية في طب الأسنان بوضعه المعجم ثلاثي اللغات في طب الأسنان . وطلابه الكثر يعترفون بفضله الواسع وعلمه الجم .

كل هذا قدمته لأبيّن الإطار الذي عمل فيه المرحوم الدكتور محمد سامي الدهان ، ولابرز المكانةالعالية والشأو المرموق في تحقيقه طائفة مختارة متنوعة من عيون التراث العربي الغابر،أصبحت مراجع جمّة الفوائد كثيرة العوائد الأدباء والباحثين والمؤرخين .

كل الملامح في حياة الفقيد كانت تنمّ على ولع عميق بالأدب العربي ، وتعده لتلك المراحل الراقية التي اجتازها في الميادين العلمية والأدبية .

ولد محمد سامي الدهان بحلب في العشرين من ربيع الثاني ١٣٣٠ هجرية أو التاسع من نيسان سنة ١٩١٢ للميلاد في أسرة كريمة ، وحفظ في صباه الغض سوراً من القرآن الكريم . ثم دخل المدرسة الفاروقية وهي مدرسة أهلية كانت تجمع خيرة المعلمين ، وتصدر إلى جانب التعليم مجلة يشترك في تحريرها التلامذة والمعلمون . فحفز هذا النشاط الفتى الناشىء على حب الأدب والثقافة والكتابة والإنشاء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم نال الشهادة الابتدائية ، وانتقل إلى المدرسة الرسمية التي كانت تدعى مدرسة السلطان ، وأتم دراسته الثانوية فيها . وفي غضون دراسته هذه ترجم بعض المقالات الأدبية عن الفرنسية .

والمعالم الجلية في حياة المرحوم كلها تتركز في تعشقه الكتابة والبحث والتنقيب بعزم راسخ وجلد دائب وتحدٍ بارز ومبارز . على أن مراحل حياته الكبرى في العلم والأدب والتأليف تتلخص على سعتها فيما يأتي :

لقد سافر إلى فرنسة على حساب الدولة السورية سنة ١٣٥٥ هـ = ١٩٣٦ م لدراسة الأدب في السربون . فاطلع هنالك على بحوث المستشرقين ومناهجهم العلمية في التحقيق . وحاز الإجازة في الأدب ثم تسجل ليهيّىء الدكتوراة . وصدر في اختياره موضوع البحث عن حب عميق للعروبة أولاً ولسورية ثانياً ولمدينة حلب مسقط رأسه ثالثاً . وذلك الموضوع شاعر عربي أصيل عاش في سورية ودرج في ربوع حلب وحمص وهو أبو فراس الحمداني . وقد طوّف الطالب الباحثة المجدّ في حواضر أوربة سعياً وراء نسخ ديوان الشاعر . ونشبت الحرب العالمية الثانية فرجع إلى حلب سنة ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م ودرّس الأدب العربي في المدارس الثانوية خلال خمس سنين . ولم تكد الحرب تضع أوزارها حتى يمم شطر باريس ، وتقدم إلى فحص معهد الدراسات العليا فيها ونال شهادته فوق سابق الاجازة . ثم نهد إلى مناقشة دكتوراة الدولة فنجح بدرجة مشرف جداً مع تهنئة اللجنة الفاحصة في حزيران ١٩٤٦ = رجب ١٣٦٥ .

ولما عاد إلى سورية انتدب عضواً في المعهد الفرنسي للدراسات العربية . وقد لاءمت هذه المرحلة ميله ووافت كفاحه العلمي ، فشرع يبذل نشاطاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

جماً يتوزع على الثقافة والأدب وتحقيق عيون التراث التاريخي والأدبي وعلى تعليم أصول التدريس في كلية التربية .

ثم اختاره مجمع اللغة العربية بدمشق عضواً عاملاً في ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٣٧٢ هـ الموافق ٧ شباط سنة ١٩٥٣ م . فكان ذلك على حد تعبيره هو أول شعار للفخر يحمله في طيات ضلوعه وأكبر حافز له على العمل للعربية .

وكانت سنة ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٤ م مترعة بالرحلات غرباً وشرقاً في سبيل المعرفة . دعته جامعات الولايات المتحدة الامريكية لزيارتها ثلاثة شهور اطلع فيها على تدريس الأدب والتاريخ . واختاره مجمع اللغة العربية بدمشق في الوفد الرسمي المدعو إلى زيارة أكاديمية العلوم السوفياتية فقضى شهراً كاملاً يطلع على وجوه النشاط الثقافي والاجتماعي في تلك الربوع .

ثم سافر بعد ذلك لدراسة المخطوطات العربية إلى استانبول والنجف والقاهرة وإلى انكلترة وهولندة والنمسة وإيطالية وتشيكسلوفاكية وغيرها .

هذا وقد اشترك في عدد كبير من المؤتمرات العلمية التي عقدها المستشرقون في بركسل وكمبردج وباريس ومونيخ ، كما اشترك في مؤتمر أدباء العرب في بلودان والقاهرة والكويت . وحاضر باسم المجمع في مهرجان شوقي ، وكذلك حاضر في مهرجان الأخطل والكواكبي والزهراوي . وزار المغرب العربي أستاذاً محاضراً . ثم عمل أستاذاً في جامعة عمّان . وآثار تلك الرحلات والمشاركات العلمية والأدبية تتبدّى في كتبه كما تتبدّى الأزهار البديعة غب الأمطار الساجمة فوق المروج الخضر الممرعة .

وكان قد انتخب إبّان الوحدة عضواً في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية سنة ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٨ م ثم مقرراً للجنة النثر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في المجلس بدمشق ، وأسهم في مهرجـــانات الأدب التي أقيمت بدمشق وحلب وحمص .

ولم يأل جهداً في غضون تلك المراحل كلها في التوفر على الأدب والكتابة والتدريس ، وعلى التحدث الغامر والتطواف المثمر والجلد الدائب والتحدي المثابر . وآثاره ناطقة بواسع اطلاعه ، شاهدة على نصوع بيانه ، شافة عن جمال أسلوبه ، نامّة على رهافة حسه ولطافة ذوقه . لقد كان كوكباً متألقاً في سماء الثقافة والأدب وحسن الحديث وجودة الانتاج .

يصحّ أن توزع آثاره الكثيرة على زمر عدة . ولقد أولى تحقيق التراث عناية فضلى فكان من ثمراتها تحقيق ديوان أبي فراس ، وكتاب في السياسة للوزير المغربي ، وديوان الوأواء الدمشقي ، وزبدة الحلب من تاريخ حلب في ثلاثة أجزاء لابن العديم ، وطبقات الحنابلة لابن رجب ، وقسم من الأعلاق الخطيرة لابن شداد ، والتحف والهدايا للخالديين ،وشرح ديوان صريع الغواني ، ورسالة ابن فضلان .

ومن ثمرات تأليفه ترجمات الرجال الأعلام قادة وشعراء وأدباء ومفكرين هم الناصر صلاح الدين الأيوبي ، وحافظ إبراهيم ، ومحمد كرد علي ، وشكيب أرسلان ، وعبد الرحمن الكواكبي ، وجان جاك روسو ، إلى جانب مجموعاته الثلاث وهي الشعر الحديث في الأقليم السوري ، وقدماء ومعاصرون ، والشعراء الأعلام .

ولم يتخلّ عن تأليف بعض الكتب خصصها للتدريس كالمرجع في تدريس اللغة العربية ، ثم الكتابة نصوص وأساليب .

أما مقالاته التي نشرها في المجلات والصحف من دراسات قصيرة في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأدب العربي والآداب الأجنبية ومن تعريب وترجمة ومن وصف لرحلاته الواسعة وغيرها فلا تكاد تحصر .

وكأنه قد شعر بقرب نهايته فقص سيرته الذاتية قصصاً ممتعاً في كتابه الأخير « درب الشوك » الذي صدر سنة ١٣٨٩ هـ = ١٩٦٩ م وصف فيه حياته وكفاحه وسعيه وراء المخطوطات العربية في الشرق والغرب والشمال والجنوب . وهو يعرف بفطرة الأديب الموهوب أن الحديث عن النفس لا يروق للقارىء دائماً . فهو يجرد من نفسه صديقاً يصف رحلاته وسيرته وأموره والشأو الذي نذره . وآخر فصل في الكتاب عنوانه « خاتمة المطاف » . أستميحكم بعرض بعض فقراته لأبرز جمال هذا الأسلوب الأدبي الممتع يوشح به كتبه ويوشي بحوثه ويزين مقالاته ويزيد في مائها ورونقها . لقد سلك دروب العلماء في التحقيق . ولكن تلك الدروب الجافة الشائكة لم تستطع أن تقضي على الشعلة الفنية التي تتوقد بين ضلوعه ولا أن تغيض المعين العذب الثرّ الذي كان يتفجر من فؤاده . يلخص الدكتور سامي حياة صديقه فيقول : « رأى صديقي ناطحات السحاب وشلالات نياغارا ، والجبال السحرية في أمريكا ، وشهد مغاني هوليود ومسارحها وشطآن الهادي والأطلنتي ، وبحيرات الجليد ، ومهابط الثلج ، ووقف أمام قاعات الكرملين وساحات لننغراد وأبصر انعكاس القمر على « النيفيا » وامتداد « الفولغا » ، وتتبع خطى ستالنغراد البطولية ، وآثار سمرقند وطاشقند التاريخية ، وطوّف في مرابع باريس ، وفينة ، ولندن ، وبراغ ، وهولندة ، والدانمارك ، والنروج ، وأسوج ، وما وراء الراين ، وسواحل إيطالية ، وغيرها من أماكن ساحرة سعياً وراء المخطوطات ، ولكنه كان يظن أنه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يسير في « درب الشوك » لكثرة ما لاقى من عنت وإرهاق في سبيل هذه المخطوطات .

وكان يحس مع ذلك شعوراً غريباً كان يختم الرحلة والمطاف ، هو شعور المتنبي نفسه أنه في هذه البلاد « غريب الوجه واليد واللسان» . وما كان يبالي لأنه في مهمة سامية يريد أن يستعيد بعض الكتب القديمة إلى حوزة قومه ... وكان خلال هذه المهمة يعجب لشعوب مختلفة ، وأعراق متباينة ، وألسنة متنافرة ، وأقوام في تواريخ شتى متباعدة متناكرة ، كيف تتحد في دولة ، وتنسجم في أمة ، وتعمل للحضارة والبناء ، والابتكار والاختراع ، فكأن ساستها من الجن تعبث بأيديها فتقلب الصحارى إلى جنات ، والجبال الجرداء إلى مفاتن ، والأنهار المتباعدة إلى قنوات متلاقية ، فتخترق الأرض ، وتصل بين السماء والسماء ، وتركز في كل مكان عبقرية بناءة .

ولقد كان الألم يعصر قلب صديقي خلال رحلاته ، لأنه لا يملك من هذه الربوع إلا متعة النظر ، ولا يشترك معها في فخر ، وليس له منها إلا ما يملك الناس جميعاً ثم يزول كل شيء ، فلا وشائج ولا أنساب ، ولا تاريخ ولا أماني عميقة ، ولا ذكريات مشتركة تصله بهذه الربوع إلا ذكريات الانسان بالانسان .

وفي البلاد العربية وحدها كان يقول : إنه أحس أن الجبال تتنفس للقائه وأن الشجر يحنو عليه . فكأن هذه الأماكن الجميلة رَوْح من روحه ، ونفس من نفسه يخفق قلبه للذكرى في كل زاوية وعند كل حجر ، فيتمسك بكل جدار وينتسب إلى كل أثر » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما أروع هذه الفقرة الأخيرة التي تشف عن تعلقه بالجماد والنبات في بلاده كأنه يحيا بها وتحيا به ، فكيف تعلقه بالانسان لولا الصروف الصعبة التي سأشير إليها ! ثم يقول مشيداً بالماضي الأثيل :

« ذلك أنه كان يحس أن أجداده مروا فيها منذ أحقاب ، فصنعوا التاريخ وسكبوا على جدران الآثار والأسوار من دمائهم وتركوا في خزائن المكتبات مداد عيونهم ،ونفحات عقولهم ، وعطروا الأودية بأنفاس الشعراء والأدباء والكتاب ، وأثاروا الرمل والتراب بجوافر خيولهم ، وخطوا في مغرب الأرض أسفاراً تقف لما صنعوا في الشرق » .

والذي يتأمل كتابه هذا يدرك من خلاله أن هذا الشوك كله قد انقلب ورداً يملأ بيته ودربه بفضل السيدة عقيلته مثال الوفاء والصبر والإخلاص والزوجة الصالحة ، فجعل إهداء كتابه إليها اعترافاً وتقديراً . وقد أرادت أن تزيد ذكراه العالية علواً فأهدت مكتبته الحافلة إلى جامعة حلب .وفي رياض الورد هذه نمت أجمل أزهارها وهما كريمتاه السيدتان الراقيتان علماً وأدباً وأخلاقاً .

وهوى ذلك الكوكب عن أفقه في السادس والعشرين من جمادى الأولى ١٣٩١ هـ الموافق العشرين من تموز سنة ١٩٧١ م وهو في التاسعة والخمسين من عمره ، مأسوفاً على نضجه وكمال أدبه . ولكن نوره بقي يُشعّ في إنتاجه الجيد الغزير .

من لم يمت عبطة قضى هرماً الموت كأس والمرء شاربها

ولست أعمد هنا فألخّص « درب الشوك » هذا ، وأنقصَ المتعة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من قراءته وتملي أسلوبه الأدبي الجميل . وحسبي النصّ الذي أوردته . ولكني أحب أن أعلّق على صحة التسمية ولطف المجاز .

ذلكم أن حياة المتفننين والأدباء والعلماء كلها دروب شوك تدمى فيها قلوبهم بعد أن تدمى أقدامهم . كلها أولاً كفاح إزاء الموضوعات التي يعالجونها ويبذلون طاقاتهم في التغلب على مشقاتها ويكابدون ما يكابدون حتى يقيّض لهم النجاح ، فينيروا بسنا أقلامهم ظلمات تلك الموضوعات . وكلها كفاح آخر في إطار المجتمع الذي يعيشون بين ظهرانيه . فهم قد خلقوا للمعالي ، ولكنهم يجدون أنفسهم محفوفين بأشواك المآرب المادية . وهم ينظرون فيما حولهم يلتمسون ما يستندون إليه في تحقيق طاقاتهم الروحية . فإذا هم بين مدّ وجزر ، وعرفان وإنكار ، وعوز وتبلّغ . وفي تاريخ الأدب لواعج بائسة ونأمات يائسة تندد بحرفة الأدب التي تغدو حرْفةً في العيش وحرقة في الجأش ، حتى أصبحت مضرب المثل .

إذا عنيت لشأوٍ قلت إني قد ... أدركته أدركتني حرفة الأدب

كما يحدث عن نفسه أبو تمام :

فيالك بحراً لم أجد فيه مشرباً ... على أن غيري واجد فيه مسبحا

كما يلتاع ويلتاح ابن الرومي . هذه الشكاة المترددة المتواترة تؤلف موضوع كتاب في الأدب العربي .

على أني أترك حلبتي الكفاح هاتين لأفصل بعض الشيء في وصف حلبة ثالثة ليست أقل خطراً ولا أوهى شرراً ولا أخف ضرراً . وقد لقي منها فقيدنا بعض العنت . ألا وهي علاقة العالم بالعالم والأديب بالأديب والمفكر بالمفكر ، إذ يدبّ الشنآن بينهم بدل العرفان ، والتشادّ عوض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التساند . إن مشاعر الانسان لتبدو أحياناً غريبة متناقضة مرتبكة . فقد يشعر المرء بقوته ويدرك مزاياه ولكنه يحسب أنها مقصورة عليه وخاصة به لا يجوز لأحد ان يشاركه فيها كأنه على حد تصوره وفي حيز توهمه إله صغير متفرد . هيهات هيهات ! ولا يكاد ينتبه للفروق بينه وبين رصفائه وإخوانه وهي التي تجمعهم لتحقق كمالهم معاً . فإن نجاحهم يدعم نجاحه ونجاحه يقوي نجاحهم ويزيد فيه .

مثل الأديب في تلك المشاعر المحدودة الضيقة مثل الطير الجميل أبي الحناء أو أبي الحن كما ندعوه هنا في ربوع الشام . إنه معجب بذاته. جناحاه تقول ذهبتها الشمس أي تذهيب ، وصدره يمثل بلونه الأحمر وهج قلبه الخفاق الملهم . يعيش منفرداً في روض أو بستان . فإن هبط البستان أو الروض أبو حن آخر فيالويل ! يطير إليه كالسهم المريش منقضاً على زينة صدره الحمراء يفتك بها . كيف استطاع طير آخر من نوعه أن يحرز هذه الشارة البديعة وأن تكون له تلك المزايا ؟ كأنه لا يفطن للفروق العميقة التي تفصل بين كائن وآخر والتي يصح أن تكون سبباً للتتام والانسجام وللتآزر والالتئام !

كم يعرض علينا تاريخ الفكر الانساني أمثلة غريبة لهذا التنافر بين رجال الفكر يهدر طاقاتهم ويبدد قواهم !.

ويجوز أن نقول أيضاً : إن أولئك الأطفال الكبار ما زالت نامية عندهم غريزة الاعتداء التي نوه بها فرويد ، إلى جانب قوة الحياة الفطرية التي يدعوها الليبيدو ، يتهددون بها نظراءهم بدلاً من دعمها لأهدافهم العالية .

أنذكر في عالم الفكر الغربي شوبنهور المتشائم الذي لم يستطع أن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يتحمل نجاح رصيفه هيغل في جامعة برلين قبل نحو من قرن فترك التدريس وعكف يقول : أتصوّر أن يقضمني الدود ولا أتصور أساتذة تاريخ الفلسفة يشرحون فلسفتي ؟ أم نذكر برنردان دوسان بيير مؤلف كتاب بول وفرجيني الذي ترجمه المنفلوطي ترجمة فاقت الأصل ؟ فلقد كان برنردان سيء العشرة مع زملائه وأهليه على أن روايته تفيض بالبراءة والمحبة ، أم نذكر دوغا المصور الفرنسي الذي كان سليط اللسان مع أقرانه من المصورين .

دعوا عالم الفكر الغربي . فتراثنا أوسع وأحفل بالامثلة من كل نوع . ربما يبتدر الذهن في الغابر خصومة جرير والفرزدق والأخطل أو البحتري وابن الرومي أو ابن الرومي والأخفش الأصغر أو المتنبي وحسدته في بلاط سيف الدولة ، كما يبتدره في القريب الحاضر خصومة شوقي والعقاد وطه حسين ومصطفى صادق الرافعي . ولكني أترك ما هو مشهور إلى ما هو متوارٍ في سواد الأسفار إنني أتخطى القرون وأتخيل العلّمين العالمين الكبيرين أبا العباس محمد بن يزيد المبرّد إمام المذهب البصري وأبا العباس أحمد بن يحيى ثعلباً إمـــام المذهب الكوفي . كناهما واحدة . ذكر السيوطي في المزهر أنه « حيث أطلق البصريون أبا العباس فالمراد به المبرد . وحيث أطلقه الكوفيون فالمراد به ثعلب . ضربت الشحناء بينهما على ألا يلتقيا أبداً . فأصبحا مثلاً في التدابر مع أن كل شيء كان يدفعهما إلى التعاون وتقدير أحدهما الآخر . فقد نشـــآ فقيرين وبرّزا في ميدان العلم وصعدا في سلم الحياة الاجتماعية ، وهما يسعيان في مضمار واحد وهو اللغة والنحو والأدب وأمثالها . وقد قنادر شاعر غزل على هذا التباعد في البلد الواحد ، فكتب إلى حبيبته بهذه الابيات :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كفى حزناً أنا جميعاً ببلدة ويجمعنا في أرض برشهر مشهد
وكلٌ لكلٍ مخلص الود وامق ولكننا في جانب عنه مفرد
نروح ونغدو لا تزاور بيننا وليس بمضروب لنا منه موعد
فأبداننا في بلدة والتقاؤنا عسير كأنا ثعلب والمبرّد

ولكن ثعلباً والمبرد لم يكونا حبيبين ولا يق أحدهما الآخر بل كانا لدودين ، يتبادلان على البعد السهام المسمومة علناً وخفاء .

وقد ذكر الرواة أن المبرد كان « من العلم وغزارة الأدب وكثرة الحفظ وحسن الاشارة وفصاحة اللسان وبراعة البيان وملوكية المجالسة وكرم العشرة وبلاغة المكاتبة وحلاوة المخاطبة وجودة الحظ وصحة القريحة وقرب الإفهام ووضوح الشرح وعذوبة المنطق على ما ليس عليه أحد ممن تقدمه أو تأخر عنه » .

ومع هذه الشمائل العالية لم يتورع أن يقول هذين البيتين في وصيفه ثعلب :

أقسم بالمبتسم العذب ومشتكى الصب إلى الصب
لو أخذ النحو عن الرب ما زاده إلا عمى القلب

ولا يخلو الجو من سعاة بين طلابها ، فقد حمل أحدهم البيتين وأنشدهما ثعلباً فتمثل هذا عندئذ بقول الشاعر :

أسمعني عبد بني مسمع فصنت عنه النفس والعرضا
ولم أجبه لاحتقاري له ومن يعض الكلب إن عضا

ولكن ثعلباً على خلاف ما ادعى قد رد بهذين البيتين عضة بعضة .

قد يقال : إن مثل هذه المداوة بين العلماء والأدباء ينشأ في مجتمع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يتخلله سوء توزيع الثروة . فإن حب الكسب والطمع في جمع المال سبب للتحاسد والتباعد والتباغض . وحقاً كان كلاهما من بيئة فقيرة علَوَا بالعلم في ذلك المجتمع العباسي الذي استطاع فيه المبرد ، ولم يبلغ الأربعين من عمره ، أن يحمل إلى بلاط المتوكل في سر من رأى مكرماً ليكون حجة يرجع إليه في النحو واللغة والقراءة والتفسير .

ويروي الرواة أن المبرد كان « ممسكاً بخيلاً يقول : ما وزنت شيئاً بالدرهم إلا ورجح الدرهم في نفسي . هذا مع السعة التي كان فيها . وكان ثعلب أشد منه في الامساك . وكان المبرد يصـــرح بالطلب ، وثعلب يعرّض ويلوّح » .

بيد أن هذا التعليل على وجاهته لا يكاد يكفي . ذلك أننا نجد في تلك العهود أمثلة رائعـــة على التوادّ والتضامن والتراحم بين الأدباء حين يتجاوزون التنافس إلى إدراك الفروق بينهم وتقدير بعضهم لمزايا بعض . ربما كان أبلغ تعبير عن تفاوت المزايا وتتامها حكمة صوفي قديم وهو أبوبكر الطمستاني حين ينبه على أن لكل نفس سبيلاً خاصاً بها إلى معالي الأمور فيقول : « الطرق إلى الله بعدد الخلق » . ويقول أيضاً : « خير الناس من يرى أن الخير في غيره ويعلم أن السبيل إلى الله كثير غير السبيل الذي هو عليه لكي يرى تقصير نفسه بنفسه فيما هو عليه » . لهذا لا نعجب من الصداقة التي أصفاها رأس الشعراء العباسيين أبو تمام شعراء عهده . بل نتغنى بخطابه البليغ لصديقه الشاعر علي بن الجهم منوهاً بالأخوّة التالدة بين أهل الأدب وإن اختلفت آفاقهم الجميلة :

إن يُكْدِ مطّرِف الإخاء فإننا   نغدو ونسري في إخاء تالد

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أو يختلف ماء الوصال فماؤنا عذب تحدر من غمام واحد
أو يفترق نسب يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد

وأبدع من هذا وأعلى وأروع موقف الأديبين يفدي كل منهما الآخر بنفسه . كأن أمثال هذا الموقف قد وقفها أصحابها ليعلنوا إلى الأجيال كافة تضامن العلماء والأدباء والمفكرين كأشد أنواع التضامن . فقد نقل ابن خلكان عن الجهشياري في كتاب « أخبار الوزراء » أن عبد الحميد الكاتب قد طلب عند انقراض الدولة الأموية ومطاردة بني العباس للأمويين وأنصارهم بالقتل والتشريد . وكان عبد الحميد صديقاً لابن المقفع . « ففاجأهما الطلب وهما في بيت . فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل واحد منهما : أنا ، خوفاً من أن ينال صاحبه مكروه . وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع فقال : ترفقوا بنا ، فإن كلاً منا له علامات . فوكلوا بنا بعضكم وبعض البعض الآخر . ويذكر تلك العلامات لمن وجهكم . ففعلوا . وأخذ عبد الحميد » إلى حيث لقي حتفه .

من فضول القول ألا نطلب إلى الأدباء والباحثين أن يكونوا على غرار هذين الصديقين الوديدين ولا على غرار حبيب وعليّ . ولكننا نطلب إليهم أن يدركوا الثمرات الطيبة التي يجنونها من تعاونهم في خدمة أمتهم ووطنهم ولغتهم ، وننشد على الأقل ما قاله يزيد بن الحكم الكلابي من قصيدة جيدة كانت معروفة :

فليت كفافاً كان خيرك كله وشرك عني ما ارتوى الماء مرتوي

هذا التعاون الجمعي الذي ننشده نشداناً دائماً له ما يسوّغه في كل نظرة نلقيها على الركائز الأولى من تراثنا الفكري العظيم وفي كل لمحة نتلمّح فيها الحاضر الناهض والمستقبل الغامض .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سيداتي ، سادتي !

لأكاد حين أتلفت وأرنو إلى عظمة الماضي من شتى جوانبه ، ثم أرمق وهن الحاضر من مختلف نواحيه أن أنشد قول الصمة القشيري وينسب أيضاً لابن الدمينة :

تلفتُّ نحو الحي حتى وجدتني ... وجعت من الإصغاء ليتاً وأخدعا
وأذكر أيام الحمى ثم أنثني ... على كبدي من خشية أن تصدعا

ثم أتلجلج حين أبلغ قوله :

فليست عشيات الحمى برواجع ... عليك ولكن خل عينيك تدمعا

ولا ألبث أن أثور بهذا البيت حين أتأمل ممكنات البلاد العربية وطاقاتها الخفية وقواها متجمعة وأجيالها مشرئبة متحفزة ، فأنشد عند ذلك :

لعمرك تلك الأرض مهد قلوبنا ... نحنّ إليها حالمين وخشّعا
تفتّحت الدنيا عليها نضارة ... وكم من عشيّات تصرّمن روّعا
ولكن ذكراها تعلّة شاعر ... فخذ بالذي يبدو لك اليوم أنفعا
سنجهد وسْعَ النفس في خدمة العلا ... إلى أن يعود العيش فينان أروعا
عصور تقضت كنّ بالمجد حُفّلاً ... وسوف يؤول المجد أبهى وأبدعا
نحاول أن نبني حياة كريمة ... ونمنع فيها صرحنا أن يُصدّعا
وأحلامنا هذي ترفّ كأنّها ... نجوم خلال الليل ضوّأنَ بلقعا
نعيش بها حيناً ونمضي لعلما ... يحقق جيلٌ مجدنا المتطلّعا
إذا أفسد الغيّ القلوب فإننا ... نصون قلوباً أن تسوء وتطبعا
ولو شحّ ضوء النجم كنا ولم نزل ... نطوالَ المدى نهدي سُراةً وضيّعا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net